

محبوب

الإصدار الخامس عشر بعد المئة

مِنْ هُنَا تُشْرِقُ الشَّمْسُ

نماذج من إسهام العُلمانيين في المعارف الإنسانية
(١٤)

ما بهذي السوق

يُشْرِى يوسفي



بقلم:

سُلْطَانُ بْنُ مُبَارَكِ بْنِ حَمْدِ الشَّيْبَانِي

سلسلة: مِنْ هُنَا تُشْرِقُ الشَّمْسُ؛ نماذج من إسهام العُمانيين في المعارف الإنسانية
 الحلقة الرابعة عشرة
 ما بهذي السوق يُشْتَرَى يوسفى

جميع الحقوق محفوظة
 الطبعة الرقمية الأولى
 ربيع الأول ١٤٤٧هـ / سبتمبر (أيلول) ٢٠٢٥م

محبوب

محبوب للنشر الرقمي
 مسقط/ سلطنة عُمان
 البريد الإلكتروني:
mahboub.pd@gmail.com

ما بهذي السوق

يُشَرِّى يوسفي

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله،
وعلى آله وصحبه ومن والاه

ما بهذي السوق يُشْرِى يُوسُفِي! (نظرة تاريخية.. في تقدير الكفاءات العلمية الوطنية^(١))

عندما أَقْلَبُ أوراقَ الماضي، وأَتَنَشَّقُ عَبَقَ التراثِ العُمانيِّ بِجَمِيعِ جوانبه أرى ومضاتٍ مشرقة؛ أَتَمَّتْ أَنْ أَقِفَ عندها كثيرًا وأن أَعْلَمَ المزيد عنها. والمجتمعُ العُمانيُّ لَمْ يَخُلْ في تاريخه الطويل من كفاءاتٍ علمية عبقرية، نَتَّهَمُ (الزَمَنَ) دائماً بإرخاء الستار عليها. وعلى الرغم من تأخر استفادة العُمانيين من جوانبٍ عصرية حضارية كثيرة تراهم أبدعوا ونبغوا

^(١) كُتِبَ في ١٥ جمادى الآخرة ١٤٣٠ هـ. وعنوان المقال مقتبسٌ من قصيدة للشاعر الكبير محمد إقبال؛ يقول فيها:

مَرَّقَ الظِّلْمَةَ	فَجَرِي	فَسَقَرُ	وَبَدَا	طُلَّ	جَدِيدُ	فِي	الرَّهْرِ
إِنِّي	أَرْقُبُ	صُبْحًا	مُعَلِّمًا	حَبْدًا	مَنْ	حَوَّلَ	نَارِي
أَنَا	لَحْنُ	دُونِ	ضَرْبِ	صَعْدَا	أَنَا	صَوْتُ	شَاعِرٍ
يَأْتِي	غَدَا	دُونِ	عَصْرِي	كُلُّ	سَرٍّ	قَدْ	خَفِيَ

وفي البيت الأخير إشارة واضحة إلى قصة سيدنا يوسف عليه السلام (انظر: ديوان محمد إقبال - الأعمال الكاملة؛ إعداد: سيد عبد الماجد الغوري. ط ٣: ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م. دار ابن كثير - دمشق/ سورية.

في بعضها ريشما سَنَحَتْ لهم الفرصة بولوج أبوابها وفتح مغاليقها. غير أنك لن تَجِدَ لِمِثْلِ هؤلاء ذكراً في (قاموس الأوائل)، أو في (موسوعة الرواد)، أو في (كتاب العبقریات)!

قرأتُ لظهير الدين البيهقي (ت ٥٦٤هـ) في كتابه (تاريخ حكماء الإسلام) كلاماً نصّه: «كَانَ أَبُو الْخَيْرِ أَثْنَى عَلَى الْعُمَانِيِّ، وَقَالَ: هُوَ أَقْوَى أَهْلِ الزَّمَانِ فِي صِنَاعَتِهِ. وَمِنْ كَلِمَاتِهِ قَوْلُهُ: حَقٌّ عَلَى الْمَرْءِ أَنْ يُوَكَّلَ مَعَهُ كَالِئَيْنِ: أَحَدُهُمَا يَكْلُوهُ مِنْ أَمَامِهِ وَالْآخَرُ مِنْ وَرَائِهِ، وَهُمَا عَقْلُهُ وَأَخُوهُ النَّاصِح. مَا يَنْفَعُكَ فِي ذَاتِكَ فَاطْلُبْهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ افْتِخَارٌ، وَمَا يَضُرُّكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَاتْرُكْهُ وَإِنْ كَانَ بِهِ افْتِخَارٌ. مَنْ اسْتَبَدَّ بِمُعَالَجَتِهِ فِي حَالِ مَرَضِهِ وَإِنْ كَانَ طَبِيبًا حَازِقًا فَقَدْ يُعَرِّضُ لِلخَطَأِ بِجَهْدِهِ. وَالِاسْتِشَارَةُ أَدَاءٌ كَامِلَةٌ». وهذه العبارة ذكرها البيهقي تحت عنوان: (العماني الطبيب)؛ دون أدنى إشارة إلى اسمه أو حتى لقبه أو كنيته^(٢).

وقرأت في (جهينة الأخبار) وفي مخطوط فيه نبذة من تاريخ زنجبار (بدار المخطوطات العُمانية رقم ٢١٧٠) أن الناس في الزمان السابق بزنجبار كانوا يستعملون الماء نزفاً بالأيدي، حتى نَبَّه السيد حمود بن أحمد السلطان

^(٢) انظر: تاريخ حكماء الإسلام؛ تأليف: ظهير الدين علي بن زيد البيهقي (ت ٥٦٤هـ). عني بنشره وتحقيقه: محمد كرد علي. ط ٢: ١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م. مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق/ سورية. ص ٧٤-٧٥. وانظر أيضاً: معجم الأطباء من سنة ٦٥٠هـ إلى يومنا هذا (ذيل عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة)؛ تأليف: أحمد عيسى. ط ٢ / ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م. دار الرائد العربي - بيروت / لبنان. ص ٣١٩.

برغش بن سعيد إلى إجراء المياه من الريف إلى البلاد، فدعا بالمهندس الشيخ محمد بن سليمان الخروصي، وأقام على التخطيط للمشروع وتنفيذه ثلاث سنوات تقريبا، وأجرى الماء في سواقٍ من الصاروج من مسافة تبعد عن البلد أربعة أميال من المكان المسمى (المتوني) شمال زنجبار، ووزعه على البيوت في أنابيب من حديد، وفرح الناس بوصوله سنة ١٢٩٨هـ / ١٨٨١م، وكانوا يسمونه الفلج^(٣)، وهو في الحقيقة أول شبكة مياه بالطرق العصرية، نَقَّذَهَا مهندسٌ عماني، ولهذا المهندس إبداعات أخرى لم تُدَوَّن.

وقرأتُ في أعداد مختلفة من صحيفة (الفَلَق) أن السيدة سعاد بنت سعيد بن سيف المعمرية أُنْهَتْ جميع مراحل الدراسة من الروضة إلى الجامعة (الدبلوم) في مصر، ثم ابتُعِثَتْ إلى إنجلترا فنالت شهادة (البكالوريوس) في علوم التدبير المَنْزِلِيّ. وعادت إلى مصر لتكمل وظيفتها التعليمية وتترقى في المناصب، وعُيِّنَتْ برتبة «ناظرة» في إحدى مدارس البنات لحكومة مصر، كما كُلِّفَتْ بإعداد منهج دراسي لِيُطَبَّع ويُعتمد في تدريس مادة التدبير المنزلي^(٤).

^(٣) انظر: جبهة الأخبار في تاريخ زنجبار؛ تأليف: سعيد بن علي المغيري (ت ١٣٨١هـ). ط ٥: ١٤٣٨هـ /

٢٠١٧م. وزارة التراث والثقافة / سلطنة عُمان. ص ٣١٤.

^(٤) انظر أخبارها في: قِصَّةُ نِجَاحٍ (أَنْمُوذَجُ إِسْهَامِ الْمَرْأَةِ الْعُمَانِيَّةِ)؛ بقلم: سلطان بن مبارك بن حمَّاد الشَّيْبَانِي. سلسلة: مِنْ هُنَا تُشْرِقُ الشَّمْسُ؛ نماذج من إسهام العُمانيين في المعارف الإنسانية (الحلقة الرابعة). الطبعة الرقمية الأولى: رجب ١٤٤٣هـ / فبراير (شباط) ٢٠٢٢م. محبوب للنشر الرقمي - مسقط / سلطنة عُمان. ٣٥ صفحة.

وقرأت في صحيفة (الفلق)؛ العدد (٥٠٤) الصادر يوم السبت: ١٥ رجب ١٣٥٧هـ/ ١٠ سبتمبر ١٩٣٨م؛ أنه في سنة ١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م أو حوالي ذلك حضرَ إلى زنجبار «جنابُ الدكتور علي بن سعيد بن سيف [المعمري]^(٥)» الحائز على درجة: M.B., CH.B. من جامعة Birmingham؛ ويُعدُّ أول طبيب عُُماني متخصص، وهو حفيد المرحوم سليمان بن ناصر اللمكي»، ومكث زهاء ستة أشهر يبحث عن عمل، ثم عُرضت عليه وظيفة فنية لا علاقة لها بتخصصه، ولم يَمُرَّ وقت طويل حتى تم تعيين طبيب إنجليزي في خدمة الحكومة، فسافر الدكتور علي مُغاضِباً إلى إنجلترا واشتغل هناك وما زال في عمله إلى تاريخ صدور الصحيفة.

وقرأت في (الفلق)؛ العدد (٦١٢) الصادر يوم السبت: ٢٥ شعبان ١٣٥٩هـ/ ٢٨ سبتمبر ١٩٤٠م؛ الخبر التالي: «وصل على ظهر الباخرة آل سعيد من ممباسة في يوم الأربعاء الدكتور سعود بن محمد الخروصي طبيب الأسنان الحائز لشهادة الدكتور في جراحة الأسنان من كلية بيروت [الأمريكية]، وكان وصوله من بيروت على طريق: العراق، عمان، الهند، سيلان. وقد علمنا أن جنابه سيباشر أعماله كطبيب لدى الحكومة، ولن يسعنا إلا أن نبدي شكرنا للحكومة التي ساعدت في تعليم هذا الوطني، وكم نكون سعيدين وتكون الأمة سعيدة إن نهجت الحكومة على هذه الخطة مرة بعد أخرى. وجنابُه أوَّل طبيب أسنان وطني».

(٥) أخو السيدة سعاد المتقدم ذكرها.

وقرأتُ في صحيفة (الفَلَق)؛ العَدَد (٦٧٦) الصَّادِر يومَ السَّبْت: ١ ذي الحجة ١٣٦٠هـ/ ٢٠ ديسمبر ١٩٤١م؛ الخبر التالي: «بلغنا - والجدُّ ملء جوانحنا - أن السيد غالب بن برغش؛ الذي تلقى علم القانون بالمدارس الراقية، ونال شهادة المحاماة بإنجلترا، قد غادرها عائداً إلى خدمة وطنه زنجبار، فنحن اليوم نرحب بأول محامٍ عربي تفتخر به العروبة بزنجبار»^(٦).

وهذه الصحف نفسها التي أنقل منها هي بِحَدِّ ذاتها نقلةً حضارية معتبرة للعمانيين، فَتَحَ بابها الشاعرُ الكبير أبو مُسْلِم البَهْلَانِي سنة ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م بصحيفته «النجاح»، وبرَعَ فيها مِنْ بعده عددٌ من أصحاب الأقلام العبقريّة الرائدة^(٧).

وقد رَصَدَ السيدُ سيف بن حمود بن فيصل آل سعيد (ت ليلة عيد الفطر ١٣٨٢هـ/ فبراير ١٩٦٣م) في صحيفته (النهضة) الصادرة بتاريخ ٢٢ شوال ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م جوانبَ حضارية أخرى من هذا القبيل، في مقال له بعنوان «تاريخ ما أهمله التاريخ».

والسيد سيف بن حمود نفسه - في مقال له جميل بعنوان «في طريقي نحو الغاية»؛ جعله افتتاحية العدد ٢٢ و ٢٩ شعبان و ٧ رمضان ١٣٧٢هـ/ ٧ و ١٤ و ٢١ مايو ١٩٥٣م، من صحيفته (النهضة) - يقول: «عندما عزمْتُ على خدمة

^(٦) هكذا ورد اسمه صحيفة الفلق، ويبدو أن المقصود: غالب بن خالد بن برغش؛ حسب سجلات مجلة:

The Law Times الصادرة في بريطانيا.

^(٧) سعت بريطانيا - مدّعية الحضارة الزائفة - إلى محاربة أغلب الصحف الوطنية العُمانية الصادرة بزنجبار، على امتداد نصف قرن أو يزيد.

بلادي عن طريق الصحافة، عقب تجاربي الطويلة في الكتابة بالصحف المختلفة، وبعد دراسات شاقة في عالم الصحافة أَخَذْتُ من صحي و... و... كنتُ أتوقع بعد هذه الدراسة التي جاهدتُ طويلاً من أجلها، وذقتُ أَلَمَ النقد الميرير والتجريح في سبيلها؛ أَنْ أَجِدَ طريقي الآن إلى العمل الصحفي مُمَهِّدًا، لأَحَقِّق رغبة عظيمة كانت وما تزال تجيش في صدري، رغبة جارفة ضَحِيَّتْ بالكثير من أجلها ولا زلتُ؛ صحي، مالي، تقاليد عائلي، وفوق ذلك آثَرْتُها عن أعز شيء عندي، وضربتُ بتلك التقاليد التي لا تنظر إلى مهنة الصحافة بعين الرضا حتى اليوم.

غير أنني فوجئتُ - ويا للأسف - بنكران الجميل، فكم من مؤامراتٍ ودسائسٍ صبيانيةٍ وحروبٍ وَجَدْتُ، وعرفتُ كثيرًا من الحقائق المؤلمة، ولكنني فوق ذلك لا آسَفُ على شيء من هذا؛ لثقتي التي لا حَدَّ لَهَا برسالتي، وإيماني العظيم بالله لا اعتقادي أن ما كان لله وحده سيدوم ويبقى ولو في صورة أخرى، أمّا ما كان لغير ذلك فهو زائل لا محالة، ولا اعتقادي أن الحق لا بد أن يبقى. وَمَهْمَا وضعوا في طريقي من الأحجار، ومهما ضايقوني ولاحقوني بالمنغصات؛ غير أنني سأُخْلِصُ لرسالتي التي أخذتها على عاتقي، ومهما ظهر لي من بعضهم من لبس لي لباس الأصدقاء، والذين كنت أرى عواطفهم نحوي، فأعتقد أنهم عدتي وعتادي في الحياة، وإذا بالأيام تكشف لي عن نفوسهم الصغيرة المملوءة بالحقْد والتشفي، غير أنني سأُمِضي في طريقي سائرًا نحو الغاية، دُونَ النظر إلى الحقْد والغيرة، والشعور بالنقص الذي يعانيه الكثيرون.

وواجبي في الحياة أن أسير قُدُمًا دائمًا إلى الأمام نحو خير المجتمع والمجموع، ومهما قَصُرَتْ خطواتي، ومهما واجهتني من عقبات، ومهما وطئت قدماي من الأشواك؛ فلا ينبغي أن أرتد إلى الوراء، وإذا حدث أن تقهقرت لبعض الوقت فَلِكِّي أنشد طريقًا آخر؛ أمضي فيه إلى الأمام نحو الغاية». انتهى المراد من كلام السيد سيف.

أتساءل في الأخير: ماذا نعرف عن أمثال هؤلاء؟ هل صاروا في عِدَادِ «ما أَهْمَلَهُ التاريخ»؟ وهل ما زلنا فيهم من الزاهدين؟ أما الحاضر فلن أتكلم عنه هنا؛ لأنني أتصور نماذج عديدة تتقافز إلى أذهان القراء الآن، غير أنني أرجو أن لا ننتظر «سنواتٍ عجافًا» حتى ندرك أن يوسف لا يُشْرَى بثمنٍ بخسٍ دراهم معدودة!